﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨﴾

[الإنسان: 27 - 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

كـفـروا بـربِّـهـم منكرين إعـادة الإحـيـاء؛ فأقام عليهم الحجَّة بما أودع فيهم مِن أعضاء

لمّا خاطب ربُّ العزَّة سبحانه رسوله الكريم ﷺ بالتَّعظيم والأمر والنَّهي؛ عدل إلى شرح أحوال الكفّار والمتمرِّدين[1]، ولمّا كان الإخبارُ عنهم يَتضمَّنُ أنَّهم يُنكِرونَ وُقوع يوم القيامة، وكان الباعثُ لهم على إنكاره شُبهةَ استحالة إعادةِ الأجسادِ بعد بلاها وفنائِها؛ جيءَ بما هو دَليلٌ للإنكارِ عليهم، وإبطالٌ لِشُبهتِهم، ببَيانِ إمكانِ إعادةِ خَلْقِهم، فالذي خَلَقَهم أوَّل مرَّةٍ قادر على أنْ يُعيدَهم، فهو سبحانه بكلِّ خلقٍ عليم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَقِيلٗا﴾: أصل (ثقل) يدلُّ على ضدِّ الخِفَّة[3]. الثِّقَل والخفَّة متقابلان، والثِّقْلُ: واحد الأثْقالِ، مثل حِمْلٍ وأحمالٍ. ومنه قولهم: أعطه ثِقْلَهُ؛ أي: وزنَه[4]؛ فكل ما يترجَّح على ما يوزن به أو يقدَّر به يقال: هو ثَقيل، وأصله في الأجسام، ثمَّ يقال في المعاني، نحو: أثْقَلَه الغُرم والوِزر[5] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾؛ أي: شديدًا، وهو يوم القيامة[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 760، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 53.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 157، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 409.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح: (ثقل).
(5) الرّاغب، المفردات: (ثقل).
(6) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 299.

2) ﴿أَسۡرَهُمۡ﴾: أصل (أسر) يدلُّ على الحبس، وهو الإمساك[1].
الأسر: الشَّدُّ بالقِدِّ. مِن قولهم: أسَرَ القتب يأسِره أسرًا: شدَّه بالإسار، وهو القِدُّ، وسُمّي الأسير بذلك، ثمَّ قيل لكلِّ مأخوذ ومُقَيَّد وإن لم يكن مشدودًا. وهو أسير ومأسور، وقيل في جمعه: أسارى وأُسارى وأسرَى. قال تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾؛ أي: خَلْقَهم[2]؛ إشارةً إلى حكمته تعالى في تراكيب الإنسان المأمور بتأمُّلها وتدبُّرها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قلوب الكُفّار معلّقة بالدُّنيا، ولو شاء الله خالقُهم لأهلكهم ولأتى بقومٍ خيرٍ منهم

في هذا البيان القُرآنيِّ ينكر المولى ﷻ على هؤلاء الكُفّار حُبَّهم الدُّنيا وإهمال الآخرة؛ حيث يُبيِّنُ للنَّبيِّ ﷺ أنَّ هؤلاء المشركين بالله مِن كُفّارِ مكَّةَ وغيرهم يحبّون البقاء في الدُّنيا وتُعجِبُهم زينتُها، ويتركون خَلْفَ ظهورهم يومًا شديدًا وهو يوم القيامة، فلا يؤمنون به ولا يعملون له، والله ﷻ هو الذي أحسَن خَلْقَهم وأبدعه وأحكم ربط مفاصلهم بالعروق والأعصاب، ولو شاء سبحانه لأهلكهم ولأتى بقومٍ خيرٍ منهم هم أطوعُ لله سبحانه، ولرسوله ﷺ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

إشارات وتنبيهات للزَّجر عن مقارفة ما وقع فيه الغافلون مِن جنايات

وقعت ﴿إِنَّ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ موقعَ التَّعليل، فهي بمنزلة فاء السَّببيَّة، فكأنَّه قال: لا تُطِع هؤلاء الكافرين، واشتغل بالأهمِّ مِن العبادة؛ فإنَّ هؤلاء تركوا الآخرة للدُّنيا؛ فاترُك أنتَ الدُّنيا وأهلَها للآخرة؛ فالجملة استئناف بيانيٌّ قُصِد به التَّعليل لِما قبله مِن النَّهي والأمر، فكأنَّ سائلًا سأل: لماذا نُهي النَّبيُّ ﷺ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أسر).
(2) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 299.
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (أسر).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 574 - 577، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 306 - 307.

عن عدم طاعتهم؟ فأجيب: لأنَّهم يحبّون الدُّنيا العاجلة بسبب شدَّة الشَّهوة والمحبَّة لِلَذّاتها الجسديَّة، ومُتَعها الدَّنيَّة البدنيَّة، ويَدَعون خلف ظهورهم يومًا شديدًا عسيرًا يَثقُل حَملُ ما فيه، ويضعف الإنسان عن تحمُّل مشاقِّه وصعابه، وهو يوم القيامة وما فيه مِن نشرٍ وحشرٍ وحساب. وفي هذا تقريع وتوبيخ للمشار إليهم وهم أهل مكَّة[1]. فالمراد أنَّ الذي حمل هؤلاء الكُفّار على الكُفر وترْكِ الالتفات والإعراض عمّا ينفعهم في الآخرة ليس هو الشُّبهة حتَّى يَنتفعوا بالدَّلائل المذكورة في أوَّل هذه السّورة، بل الشَّهوة والمحبَّة لهذه اللَّذّات العاجلة، والرّاحات البدنيَّة، ولو أطاعهم لتخلَّق بخلقهم، فنُهيت الأُمَّة عن ذلك في شخص نبيّها ﷺ[2].

الغرض من التَّعبير باسم الإشارة للقريب ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾:

أوثر التَّعبير باسم الإشارة الذي هو للقريب للإشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطَب لكثرة الحديث عنهم، ولتمييزهم أكمل تمييز بحيث يجعلهم مِن البروز بين النّاس بمنزلة مَن يشار إليه، وللدَّلالة على قربهم مِن النَّبيّ ﷺ فيكون فيه إلماح لما عاناه ﷺ مِن شدَّة أذاهم مِن جرّاء مخالطته إيّاهم داعيًا ومبشّرًا ونذيرًا، وفي التَّعبير بالإشارة أيضًا تحقير لشأن المشركين[3].

اسم الإشارة تحقيرٌ لشأن الكافرين، وتنبيه إلى جُرمهم وضلالهم المبين

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُحِبُّونَ﴾:

أوثر التَّعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ﴾ للدِّلالة على تجدُّد ذلك وتكرُّره منهم؛ أي أنَّ ذلك دأبُهم ودَيْدَنُهم: يحبّون الدُّنيا محبَّة تتجدَّد في كلِّ وقت، فلا يشاركون معها حُبَّ الآخرة[4]؛ فحُبُّهم للعاجلة ليس طارئًا ولا لحظة عابرة، بل هو أمرٌ دَرَجوا

درجوا على حبِّ العاجلة الدَّنيّة؛ فامتلأت به نفوسهم وصار لهم سجيَّة

(1) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1718، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 53.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 760.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 157، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 407.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 157، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 407.

عليه وألِفوه وتجذَّر في نفوسهم، فأصبحوا لا يعتقدون غير العاجلة، "يسعَوْن لها جهدَهم، وإنْ أهلكوا الحرث والنَّسل"[1].

الغرض من حذف الموصوف وذكر الصفة ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾:

جاء التَّعبير بـ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ وهي صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ معلومٍ مِن المقام، تقديره: الحياة العاجلة، أو الدّار العاجلة، والمراد بها مُدَّة الحياة الدُّنيا، وفي إيثار ذِكر الدُّنيا بوصف العاجلة توطئةٌ للمقصود مِن الذَّمِّ؛ لأنَّ وصف العاجلة يؤذِن بأنَّهم آثروها لأنَّها عاجلة. وفي ذلك تعريض بتحميقهم إذ رَضوا بالدّون؛ لأنَّه عاجل وليس ذلك مِن شيم أهل التَّبصُّر"[2].

حـبُّ الـدنـيـا منشأ البلادة والـقـصـور، ومعدن الأمراض للقلوب التي في الصدور

دلالة العطف:

عطفت جملة: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ على جملة: ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾؛ لبيان جانب آخر من الجوانب التي لأجلها جاء التَّشنيع والتَّوبيخ في الآية الكريمة، وهو عدم أداء شكر المُتَع الدُّنيويَّة، والانشغال بها عن الأهوال الأخرويَّة، وهذا العطف "واقع موقع التَّكميل لمناط ذمِّهم وتحميقهم؛ لأنَّهم لو أحبّوا الدُّنيا مع الاستعداد للآخرة لما كانوا مذمومين، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الرّوم: 7]"[3].

الانـغـمـاس في حبِّ الزّائل مع غـيـاب الـزّاجـر بـاعـثٌ عـلى الضَّياع والهلاك

دلالة التَّعبير بالمضارع (﴿وَيَذَرُونَ﴾:

أوثِر التَّعبير بصيغة المضارع في قوله سبحانه: ﴿وَيَذَرُونَ﴾ للدِّلالة على "أنَّهم مستمرّون على ذلك، وأنَّ ذلك متجدِّد فيهم ومتكرِّر، لا يتخلَّفون عن ذلك التَّرك؛ لأنَّهم لا يؤمنون بحلول ذلك اليوم؛ فالمسلمون لا يذرون وراءهم هذا اليوم؛ لأنَّهم لا يَخْلون مِن عملٍ له على تفاوتٍ بينهم في التَّقوى"[4].

مَـن يُـدِم الانشغال عن الآخـرة يصدأ قلبُه ويعمَ عن كلِّ حقيقة باهرة

(1) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 379.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 407 - 408.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 407 - 408.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 408.

سرُّ إيثار التَّعبير بالوراء عن الأمام:

أوثِر التَّعبير بـ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ دون قُدّامهم أو أمامهم في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ للإشارة إلى أنَّهم لم يلتفتوا إلى ذلك اليوم العظيم، بل أعرضوا عنه، فكأنَّهم جعلوه وراء ظهورهم.

نبذوا التَّذكير بالفناء؛ فقضي عليهم بالتَّعاسة والشَّقاء

الغرض مِن تقديم الظَّرف ﴿وَرَآءَهُمْ﴾:

قُدِّم الظَّرف ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ على قوله: ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ اهتمامًا بالمقدَّم، وتشويقًا للمؤخَّر ليتمكَّن مِن النَّفس كلَّ التَّمكُّن، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ مُشعِر بالإعراض عن واجب مفروض ممّا يوجِب ذمَّ المُعرِض عنه، فإذا عُلِم أنَّ هذا المتروك ظِهريًّا هو يومٌ ثقيل لا تجوز الغفلة عنه بَلْهَ الإعراض - زاد استشناع الجُرم واستفظاع الإثم. كما أنَّ في هذا التَّقديم رعاية على الفاصلة، فاجتمع جمال النَّظم مع جلال المعنى.

تقديم للفعل المذموم؛ تقريعًا للاستهانة بالأجل المحتوم

الغرض مِن تنكير ﴿يَوْمًا﴾:

جاء التَّنكير في قوله تعالى: ﴿يَوْمًا﴾ لإفادة التَّفخيم والتَّعظيم؛ حيث إنَّه يومٌ تقع في أهوالٌ جِسامٌ عِظامٌ لا تقع في غيره، فكان حريًّا بأن يعظَّم كما صُرِّح به في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: 4 - 6]. وهذا التَّعظيم يُعَظِّم بدوره جُرم مَن جعل هذا اليوم وراء ظهره، فلم يحفل به، ولم يعبأ بما فيه.

يوم القيامة يوم عظيم، وكلُّ خطب فيه جسيم

دلالة وصف ﴿يَوْمًا﴾ بـ﴿ثَقِيلًا﴾:

جاء وصف يوم القيامة بالثِّقيل في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ مبالغة في تعظيمه، وتعظيم ما يقع فيه مِن أهوال وأحوال، ويجوز حمل هذا الوصف "على جهة النَّسب؛ أي: ذا ثِقلٍ، مِن حيث الثِّقل فيه على الكُفّار، فهو كقولهم (ليلٌ نائمٌ)"[1]؛ أي: نائمٌ

يوم القيامة مثقّلٌ بالمتاعب لا يطيق فيه الكفّار حمل المصائب

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 415.

صاحبُه، وهذا مجاز بالإسناد، وإنَّما كان الثِّقل فيه على الكافرين "لِما يحملونه فيه مِن المصائب بسبب أنَّهم لا يُعِدّون له عُدَّته"[1]، وهو نظير قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المُدَّثِّر: 9 - 10]. ويجوز حملُه على الاستعارة التَّصريحيَّة، وذلك بتشبيه شدَّة ذلك اليوم وهولِه بثقلِ شيء قادح باهظ لحامله، فاستُعير الثِّقل للدَّلالة على ذلك[2].

بلاغة الاحتباك:

الإيجاز ثوبُ الإعجاز

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ احتباك؛ حيث ذكر الحُبَّ والعاجلة أوَّلًا دلالة على ضدِّهما ثانيًا، والتَّرك والثِّقل ثانيًا دلالةً على ضدِّهما أوَّلًا، وسرُّ ذلك أنَّ ما ذكره أدلُّ على سخافة العقل بعدم التَّأمُّل للعواقب وتقدير الاحتباك: ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ويُبغِضون الآخرة، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ ويستمسكون بأيّام الدُّنيا التي زينتها الشَّهوات والملذّات[3].

دلالة الاستئناف في ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾:

استئناف لزيادة التَّشنيع عليهم، وبيان قبح فعالهم وعِظَم جرائمهم

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ استئناف مسوقٌ "للنَّعي عليهم تركهم للعبادة وغفلتهم عن طاعة بارئهم وموجِدهم مِن العَدَم"[4] فلمّا كان الإخبار عنهم بأنَّهم ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ يتضمَّن أنَّهم ينكرون وقوع ذلك اليوم، وكان الباعث لهم على إنكاره شبهة استحالة إعادة الأجساد بعد بلاها وفنائها، وكان الكلام السّابق مسوقًا مساق الذَّمِّ لهم والإنكار عليهم - جيء هنا بما هو دليل للإنكار عليهم وإبطال لشبهتهم ببيان إمكان إعادة خلقهم، يعيده

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 158.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 273، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 760، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 183.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 157.
(4) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 508.

الذي خَلَقَهم أوَّل مرَّة كما قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ [الإسراء: 51]، وغير ذلك مِن الآيات الحائمة حول هذا المعنى[1].

الغرض من تقديم المسند إليه على خبره الفعليّ:

عظمة مطلقة في الخلق وإبداع، ودلائل واضحة تقرع القلوب والأسماع

أوثر تقديم المسند إليه على خبره الفعليّ في قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾؛ لإفادة الحصر والاختصاص؛ أي: نحن - لا غيرنا - خلقناهم مِن طين بدءًا مِن آدم ﷺ وفي أصلاب آبائهم وأرحام أمَّهاتهم، وأعطيناهم القوَى والقُدَر وشددنا وربطنا مفاصلهم وأوصالهم بعضهم ببعض: ربطناها بالأعصاب والعروق، وذلك في إحكام حكيم، وربط وثيق لا يقدر عليه أحد سوانا، فكلُّ المخلوقات قهرُ عظمَتنا[2]، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي، لا اشتراكًا ولا استقلالًا[3].

كما أفاد هذا التَّقديمُ أيضًا تقَوية الخبر وتحقيقه بالنَّظر إلى المعنيّين بهذا الكلام وإنْ لم يكن خطابًا لهم ولكنَّهم هم المقصودون منه، وتقوية الحكم بناءً على تنزيل أولئك المخلوقين منزلة مَن يشكُّ في أنَّ الله خلقهم حيث لم يجرؤوا على موجب العلم، فأنكروا أنَّ الله يعيد الخلق بعد البِلَى، فكأنَّهم يسندون الخلق الأوَّل لغيره، وتقوّي الحكم يترتَّب عليه أنَّه إذا شاء بدَّل أمثالهم بإعادة أجسادهم؛ فلذلك لم يحتج إلى تأكيد جملة: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ استغناءً بتولُّد معناها عن معنى التي قبلها وإن كان هو أولى بالتَّقوية على مقتضى الظّاهر، وهذا التَّقوّي هنا مُشعِر بأنَّ كلامًا يعقبه هو مصبُّ التَّقوّي[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 409.
(2) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 1718 - 1719.
(3) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 480، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 508.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 409.

دلالة التَّعبير بالماضي، والغرض مِن إسناده إلى نون العظَمَة:

مَـن خَـلَـقَ مِـن العَـدَم بلا عناء قَدَرَ على الإحياء وإعادة الإنشاء

أوثر التَّعبير بالفعل الماضي في قوله: ﴿خَلَقْنَٰهُمْ﴾ لإفادة تحقُّق فعل الخَلْق وانقضائه؛ إذ المعنيّون بهذا الكلام هم أحياء يسمعون ويُرزَقون، ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: 35]؟! وفي ذلك دليل قاطع على القدرة العظيمة المطلقة؛ إذ مَن أنشأ مِن العدم قادر على الإعادة بلا عناء، ومِن هنا حسُن أن يُسنَد الفِعل إلى ضمير التَّعظيم؛ لأنَّ إيجاد بشر يسمعون ويبصرون وينطقون مِن نطفة ماء مهين هو مِن أدلِّ الأدلَّة على العَظَمَة، وهذه الحجَّة مِن أقوى أساليب القرآن في إقامة البرهان العقليِّ.

دلالة العطف في ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾:

العـطـف لبيان مـا أودع الـلـه في الإنسان مِن قـوًى مترابطة بـعـد إقـامـة البنيان

العطف الجامع بين جملة ﴿وَشَدَدْنَآ﴾ وجملة ﴿خَلَقْنَٰهُمْ﴾ هو مِن باب التَّكميل، "والتَّكميل يَرِدُ على المعنى التّامّ فيكمّله؛ إذ الكمال أمرٌ زائدٌ على التَّمام"[1]، فقوله تعالى: ﴿خَلَقْنَٰهُمْ﴾ أفاد معنى تامًّا، وهو إيجاد البشر بعد أن لم يكونوا موجودين، فجاء قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ مكمّلًا لهذا المعنى، ومبيّنًا "ما أودع الله ﷻ في الإنسان بعد خلقه مِن قوًى جسديَّة، وعقليَّة، وروحيَّة، ونفسيَّة، فهذه القوَى التي أودعها الخالق - ﷻ - في كيان الإنسان، هي قوى مجتمعة، متساندة، متآلفة، يعمل بعضها مع بعض كأنَّها قوَّة واحدة، وفى هذا بيان لما لله ﷻ مِن فضلٍ وإحسانٍ على الإنسان الذي خلقه، فأحسن خلقه، وأقامه على هذه الصّورة التي علا بها على أفق الحيوان، فصار بشرًا سويًّا، وأصبح خليفة لله في الأرض"[2].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَشَدَدْنَآ﴾، والغرض مِن الإسناد:

عُبِّر بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ﴾ في قوله تعالى:

(1) عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص: 121.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1384 - 1385.

﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ لإفادة تحقُّق الإحكام في هذا البنيان العظيم وهو الإنسان، وقد أُسند الفعل إلى الضَّمير الدّالِّ على التَّعظيم؛ لوقوع ذلك مِن العليِّ القدير ﷻ ولبيان ما أودع سبحانه فيه مِن العظمة ودلائل القدرة، وذلك حيث "أحكم سبحانه خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظّاهرة والباطنة، حتَّى تمَّ الجسم واستكمل، وتمكَّن مِن كلِّ ما يريده، فالذي أوجدهم على هذه الحالة قادرٌ على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدّار إلى هذه الأطوار لا يليق به أن يتركهم سدًى: لا يُؤمَرون، ولا يُنهَوْن، ولا يُثابون، ولا يُعاقَبون"[1].

تحقُّق الإحكام إنعام وحجَّة على سائر الأنام

الغرض مِن التَّعبير بالمفعول به مصدرًا مضافًا: ﴿أَسْرَهُمْ﴾:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿أَسْرَهُمْ﴾ إضافة معنويَّة محضة، تفيد تعظيم الخَلْق الذي أُحكِم بشدِّ الأسْر، وتشير إلى أنَّ البشر - وإنْ اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأطوالهم وقواهم - قد تساوَوْا في أصل الخِلقة، فأتمَّ الله خلْقهم، وشدَّ أسرهم، فهُم متشابهون مِن هذه الحيثيَّة، والفروقات بينهم لا تكاد تؤثِّر على هذا التَّشابه، فليس اختلافهم كاختلاف أنواع الحيوانات المندرجة تحت جنس واحد، وهذا مفهوم مِن إضافة المفرد (أسر) إلى ضمير الجمع (هم)، وهذا بخلاف إضافة الجمع إلى الجمع الذي يقتضي أن تكون القِسمة آحادًا، يكون لكلٍّ منهم شدُّ أسر يختلف عن غيره. فهذا الإحكام في الخلْق خاصٌّ بهم جميعًا، وجزء مِن هويَّتهم وكيانهم، لا ينفكُّ عنهم، فيوحي بعظَمَة الصَّنعة الإلهيَّة فيهم.

عظَمَة الخالق وقدرتُه تُبرزُها حكمته وخِلقته

ثمَّ إنَّ هذه الإضافة فيها تقريع لهؤلاء الكافرين الذين أعجبتهم أنفسُهم، وغرَّتهم قوَّتهم، فاستكبروا في الأرض بغير الحَقِّ، فنسوا

(1) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 903.

أصل خلقتهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾ [النّحل: 4]، وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ [يس: 78].

أمّا التَّعبير بالمصدر فللتَّجرُّد مِن الزَّمان، وإفادة الشُّمول؛ ليشمل كلَّ صور الإحكام في الخلق، مِن تماسُك البَدَن، وربط العِظام باللَّحم والأعصاب، إلى إحكام القوَى الدّاخليَّة والنَّفسيَّة، فيحمل المعنى أفقًا أوسع ممّا لو اقتصر على الفعل.

دلالة التَّعبير بأسلوب الشَّرط بالأداة ﴿وَإِذَا شِئۡنَا﴾:

جيء بـ(إذا) لإفادة تحقُّق التَّلازم بين شرطها وجوابها، فإنَّ (إذا) تُستَعمَل للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوع أيضًا[1]. فالتَّعبير بها هنا أفاد "تحقُّق قدرته تعالى على التَّبديل، وتحقُّق ما يقتضيه مِن كُفرهم المقتضي لاستئصالهم، فجعل ذلك المقدورَ المهدَّد به كالمحقَّق، وعبّر عنه بما يُعَبَّر به عنه"[2] وفي هذا "إشارة إلى قدرة الله القادرة التي لا يفلت مِن سلطانها مخلوقٌ، والتي تخلق ما تشاء وتختار، دون معوِّق، أو معقِّب، وهؤلاء الآدميّون الذين خلقهم الله سبحانه على تلك الصّورة من الإحكام والإتقان، لا يمسكها إلّا الله، ولا يحفظ عليها وجودها إلّا هو، فإذا أراد سبحانه أن يبدِّل بهؤلاء الآدميّين غيرهم نفذت إرادته ومضت مشيئته"[3].

تشنيع للكفّار على كُفرهم في مقابلة النِّعم وذِكر نعمة إيجادهم وتمكينهم

دلالة التَّعبير بالمشيئة، ودلالة مجيء فعلها ماضيًا مسندًا لنون العَظَمَة:

ذُكِرت المشيئة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئۡنَا﴾ لإبهام الوقتِ، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا شئنا أهلكناهم وبدَّلنا غيرهم ممَّن يطيع، فالتَّبديل في الذَّوات. أمّا التعبير بالماضي فللدِّلالة على أنَّ المشيئة

مشيئته نافذة وسلطانه سبحانه قاهر

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 60، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 440، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 5/ 113، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 410، والسّامِرّائيُّ، معاني النَّحو: 4/ 69 - 71.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 184، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 273، والهرريُّ، الحدائق: 30/ 509.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1385.

الإلهيَّة متحقّقة الوقوع لا يتطرَّق إليها شكٌّ؛ فمتى تعلَّقت إرادته بشيءٍ فهو كائن لا محالة، كما أنَّ التَّعبير بالماضي يلقي في نفس السّامع إيحاءً أن مشيئة الله سريعة النَّفاذ لا يعوقها شيءٌ ألبتَّة؛ وفي هذا طمأنة لأولياء الله، وتهديد ووعيد لأعدائه، وفي إسناده إلى الضمير الدال على التعظيم إشعار بالمهابة وتربية لها[1].

نكتة التَّعبير بالماضي مسندًا لنون العَظَمة: ﴿بَدَّلْنَآ﴾:

بيده سبحانه الإفناء والتَّبديد، وهو فعّالٌ لِما يريد

عُبِّر بالماضي في قوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَآ﴾ لإفادة تحقُّق التَّبديل متى توجَّهت إليه المشيئة الإلهيَّة. وهذا أمر عظيم في ذاته، وعظيم مِن حيث نسبته إلى الله ﷻ؛ ولذلك أُسنِد الفعل لنون العَظَمَة لبيان عظمة الفعل والفاعل جلَّ ثناؤه. وفي هذا تهديد لهم بالإهلاك؛ أي: وإذا أردنا إهلاكَهم وتدميرَهم جئنا بأمثالهم في شدَّة الخَلْق وإحكام الصُّنع ممَّن يطيعنا ويمتثل أمرَنا؛ فقدرتُنا صالحةٌ لذلك لا يتأبَّى عليها شيء مِن الممكنات ما دامت إرادتنا قد تعلَّقت به، والغرض مِن هذا الخبر بيان الاستغناء التّامّ عنهم، كأنَّه قيل: لا حاجة بنا إلى أحد مِن المخلوقين ألبتَّة[2].

الغرض مِن التَّعبير بالمفعول به جمعًا مضافًا:

الإخبار بشموليَّة التَّبديل؛ زجر ومانع مِن الغواية والتَّضليل

في إضافة الجمع إلى الجمع: ﴿أَمْثَٰلَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ إشارة إلى أنَّ قدرة الله سبحانه لا حدود لها، وأنَّه قادر على أنْ يقيم مكان هؤلاء الآدميّين أمثالًا، لا مِثلًا واحدًا[3]، فهو سبحانه القادر على أن يبدِّل مكان كلّ واحد منهم واحدًا، وهذا مفهوم مِن إضافة الجمع إلى الجمع، وقد أوثرت هذه الصّياغة هنا دون أن يقال: (بدَّلنا مِثلهم) للإشارة إلى طلاقة قدرة الصّانع

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 184، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 273، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 509.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 761، ومجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1719.

(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1385.

العظيم جلَّ ثناؤه، فهو قادر على أن يأتي بمثل كلِّ واحد على حدة مع مراعاة اختلاف أشكالهم وألوانهم وأحجامهم وخصائصهم، فكيف يُنكرون بعد ذلك البعث؟!.

نكتة التَّعبير بالأمثال:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَلَهُمْ﴾ جاء التعبير بـ ﴿أَمْثَلَهُمْ﴾، والأمثال: جمع مِثل، وهو المُماثِل في ذاتٍ أو صِفة، فيجوز أن يراد أمثالهم في أشكال أجسادهم، وهو التَّبديل الذي سيكون في المعاد، ويجوز أنْ يُراد أمثالهم في أنَّهم أُمَم، وعلى الوجه الأوَّل فهو يدلُّ على أنَّ البعث يحصل بخلق أجسام على مثال الأجساد التي كانت في الحياة الدُّنيا للأرواح التي كانت فيها"[1]، "وهذا استدلال بالبداءة على الرَّجعة"[2].

استدلال بالبَداءة على الرَّجوع، وهذا أمر متحقِّق الوقوع

دلالة التَّعبير بالمفعول المطلق ﴿تَبْدِيلًا﴾، ونكتة تنكيره:

جيء بالمفعول المطلق ﴿تَبْدِيلًا﴾ الذي هو مِن جنس فعله تأكيدًا لهذا الفعل، ولدفع توهُّم إرادة المجاز، "وللدِّلالة على أنَّه تبديل حقيقيٌّ، وللتَّوصُّل بالتَّنوين إلى تعظيمه"[3]، "والمعنى: إذا شئنا بدَّلنا غيرهم ممَّن يطيع كقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: 38]؛ ففيه ترهيب"[4] كما أنَّ لفظة ﴿تَبْدِيلًا﴾ التي تنتهي بألف المدِّ – وهو إيقاع مفتوح – تترك في السَّمع أثر الامتداد والاتِّساع؛ إشعارًا بامتداد سلطان الله سبحانه في الخلق والتَّبديل.

قدرة الله تامَّة مطلقة، وإحاطته بالخلائق أكيدةٌ متحقِّقة

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يذرون) و(يدعون) و(يتركون):

الفرق بين الثلاثة أنَّ التَّركَ أعَمُّ وأوسَع، وأنَّ ما جاء مِن (ودعَ)

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 409.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 294.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 411.
(4) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 509.

يكون معه شيءٌ مِن الكُره والبُغض. قال الله ﷻ: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: 48]، وقال الله ﷻ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضُّحى: 3]؛ أي: ما تركك منذ اختارك، ولا أبغَضَكَ منذ أحبَّك[1].

التَّرْكُ أعَمُّ، وفي (ودعَ) تركٌ مع شيءٍ مِن البُغض، وفي (وذَرَ) ترك مع شيءٍ مِن الحُبِّ

وأمّا ما جاء مِن (وذَرَ) فيكون معه شيءٌ مِن الحُبِّ. قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234]؛ ويُلاحَظ هنا حبُّ الزَّوج للزَّوجة، وحبُّها له، وقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨﴾ [البقرة: 278]؛ ويُلاحَظ هنا أنَّ الإنسانَ جُبِلَ على حُبِّ المال، وقال الله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ [نوح: 23]؛ ويُلاحَظ هنا حبُّهم لتلك الأصنام.

وفي قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ يُلاحَظ قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾؛ فهم يُحِبّون العاجلةَ التي مِن أجلها يَذرون وراءَهم يومًا ثقيلًا، ويُلاحَظ ذلك أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة: 20 - 21].

الأسْر والخَلْق:

في الخَلْق معنى التّقدير والتّسوية[2]، والخَلْقُ أصلُه: التَّقدير المستقيم، ويُستعمَل في إبداع الشَّيء مِن غير أصل ولا احتذاء، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]؛ أي: أبدعهما، بدلالة قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117][3]. وكلُّ شيء خَلَقَه الله فهو مبتدِئُه على غير مثالٍ سُبِق إليه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: 54][4].

في الخَلْقِ معنى التَّقدير والتَّسوية، وفي الأسْرِ معنى الرَّبط والتَّوثيق

(1) الثعلبيُّ، الكشف والبيان: 10/ 244، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 454.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/ 3، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/ 153، وأبو البقاء الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 430.
(3) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (خلق).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، التّاج: (خلق).

ويُستَعمَل في إيجادِ شيءٍ مِن شيءٍ، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النِّساء: 1]، وقال ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النَّحل: 4]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: 12][1]. وخَلَقَ اللّه الشَّيءَ يَخلُقه خَلْقًا: أحدَثه بعد أنْ لم يكن[2].

والأسْر: الرَّبط والتَّوثيق[3]، والأسْرُ: شِدَّة الخَلْق[4]، ويقال: رَجُلٌ مَأسورٌ؛ أي: شَديدُ عَقْدِ المَفاصِلِ والأوْصالِ[5]. وشَدَّ اللّه أسْرَه؛ أي: قَوَّى إحكامَ خَلقِه[6]. واشتقاقُه مِن الإسار وهو القِدُّ الذي يُشَدُّ به الأقتاب، يقال: أسرت القَتَبَ أسْرًا؛ أي: شددته وربطته، ويقال: ما أحسنَ أسْرَ قَتَبِه! أي: شدّه وربطه[7]؛ ولذا أوثِر لفظ (الأسْر) في قول الله ﷻ: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾؛ أي: قوَّينا وأتقَنّا رَبْطَ مفاصلِهم الظّاهرة والباطنة بالأعصاب على وجه الإحكام بعد كونهم نطفةً أمشاجًا في غاية الضَّعف[8]، أو شدَدنا توصيلَ عظامِهم بعضها ببعض، وتوصيلَ أعضائهم بعضًا ببعض، وتوثيقَ مفاصلهم بالأعصاب[9]؛ فأوثر لفظ (الأسْر) لدلالته على إحكامِ الخَلْقِ وإتقانه وشِدَّته، وهو مناسبٌ لقوله ﷻ: ﴿وَشَدَدْنَآ﴾.

(1) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (خلق).
(2) ابن سيده، المحكَم: (خلق).
(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 675، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 761، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 158، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أسر).
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 280، وابن سيده، المحكَم: (أسر)، والواحديُّ، التَّفسير البسيط: 4/ 406، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 427.
(5) ابن سيده، المحكَم: (أسر).
(6) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة، والزَّبيديُّ، التّاج: (أسر).
(7) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 151.
(8) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 158.
(9) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 675، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 761.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"